تعريب الدولة والمجتمع بالمغرب الأقصى خلال العصر الموحدي

رحمة تويراس، باحثة في التاريخ الوسيط- الرباط

صدر سنة 2015 عن مؤسسة الإدريسي الفكرية للأبحاث والدراسات كتاب بعنوان **"تعريب الدولة والمجتمع بالمغرب الأقصى خلال العصر الموحدي"** للباحثة رحمة تويراس. ويضم الكتاب 319 صفحة، وهو في أصله أطروحة دكتوراه في التاريخ نوقشت بجامعة محمد الخامس بالرباط سنة 2004. تناول الكتاب موضوع التعريب خلال العصر الموحدي والعوامل التي أنتجت هذا الواقع التاريخي، دون أن يغفل المكانة التي كانت للّغة الأمازيغية في إرساء أسس هذه الدولة.

يضم الكتاب أربعة أبواب، مَهَّد بابه الأول للعوامل التي ساهمت في انتشار اللغة العربية قبل العصر الموحدي؛ فتناول فصله الأول تاريخ المجموعات البشرية التي صنعت الخريطة اللغوية لمجتمع مغرب العصر الوسيط، بدءا بالأمازيغ الذين استوطنوا المنطقة منذ أقدم العصور، ثم العرب الذين توافدوا على بلاد المغرب منذ الفتح الإسلامي إلى العصر المرابطي، فشكل بذلك أهم وسيلة للتعريب، دون إغفال مساهمة العناصر القيروانية والأندلسية. أما الفصل الثاني من هذا الباب، فخصص لإبراز دور المدن في مسلسل التعريب. فالعناصر العربية الأولى المهاجرة استوطنت المدن والأمصار باعتبارها مراكز جذب لنخبة الفقهاء والعلماء، والتي كان لها دور في تنظيم الإدارة والتعليم. وهكذا ظهر التعريب في المدن قبل البوادي، ولم يمتد إلى هذه الأخيرة إلا لاحقا مع قدوم القبائل العربية الهلالية.

خصص الباب الثاني لدراسة عوامل أخرى مؤثرة ساهمت تدريجيا في صنع هذا الواقع التاريخي. فاهتم الفصل الثالث بدراسة دور المؤسسات الدينية والتعليمية في نشر اللغة العربية مثل المسجد، والكتَّاب، والرباطات. ويدل انتشار هذه المؤسسات على احتكاك الناس باللسان العربي، خصوصا أنها مؤسسات شعبية تتصل بعامة الناس، بل تضافرت وتكاملت فيما بينها لتدعم إشعاع اللغة العربية، لكن أدوارها كانت غير متكافئة، واختلفت من وقت لآخر. أما الفصل الرابع فيتعلق بمسألة انتحال الأمازيغ للنسب العربي، وهي ظاهرة لا نجد لها مثيلا عند الشعوب الأخرى. وقد تم الوقوف على العوامل التي أسست لفكرة القرابة ضمن سلسلات النسب، مع إقامة علاقة افتراضية بين هذا الانتحال والتعريب، إذ يحتمل أن تكون هذه العلاقة لبنة من اللبنات التي أسست لموقف ايجابي من التعريب، لأنه قد يكون ساهم في تقبل اللغة العربية. وانصب الاهتمام في الفصل الخامس على حلقة أخرى من حلقات التعريب، وهي الاندماج في الثقافة العربية. ويبدو أن هذا الاندماج تحكمت فيه إرادة الخلفاء والعلماء، والصلات الثقافية، وعلاقات التجاذب التي ربطت بين المغرب الأقصى وباقي أقطار المشرق الإسلامي، حيث شكلت الرحلة العلمية جسرا مرت عبره الثقافة العربية في شكلياتها ومضامينها، لتصبح بعد ذلك مؤهلا أساسيا لشغل المناصب الكبرى.

أما الباب الثالث، فركز على دراسة تعريب الدولة الموحدية، ويحتوي على الفصلين السادس والسابع. وقف الأول على دور الدولة في إرساء هياكل تنظيمية كانت السيادة فيها للغة العربية التي ظلت مرعية في الشؤون الإدارية. وحظي ديوان الرسائل بأهمية خاصة ساهمت في استمرار ترسيخ اللغة العربية لغةً للكتابة، وكذا هيئة الحُفّاظ التي أنشئت لتخريج كفاءات ذات خبرة ودراية في مجال التدبير. ولا شك أن هذا الإجراء ساهم في تعزيز الإدارة الموحدية بعناصر ذات ثقافة

عربية. وتناول الفصل السابع المؤثرات المختلفة والوسائل التي استخدمتها الدولة الموحدية لتطوير الثقافة في قالبها العربي، وكذا مجهوداتها في استعمال اللسان الأمازيغي سواء على المستوى الديني أو الرسمي.

خصص الباب الرابع لتعريب المجتمع خلال العصر الموحدي، عبر رصد بنيته وتحديد العناصر السكانية المشكلة له في كل من المدينة والبادية. ففي الفصل الثامن، تم التركيز على متابعة مسلسل تهجير القبائل العربية ورصد تحركاتها ومناطق نفوذها. وقد كان إنزال العرب الهلالية بالسهول والأرياف الدفعة التي أعطت للتعريب قوته، خاصة على المستوى المجالي. وبما أن المنطقة عرفت ما يكفي من الحركية السكانية، خاصة أواخر الحكم الموحدي عندما فقدت السلطة الموحدية جل مقوماتها، مما شجع القبائل الهلالية على الانتشار والتحرك، فإن هذه التحركات كان لها عميق الأثر في انتشار اللغة العربية وحمولتها من أعراف وتقاليد. كما تم توضيح الظروف التي ساهمت في تعريب المدن الموحدية، حيث جاءت الهجرة الأندلسية لتتجه بالمجتمع الحضري من جديد نحو التعريب. وتناول الفصل التاسع العامية المغربية خلال العصر الموحدي. وتم الاعتماد في هذا الباب على بعض الجمل التي وردت في كتاب أخبار المهدي للبيذق، وعلى بعض الأزجال المتفرقة. أما الفصل العاشر والأخير، فكان النظر فيه مركزا على دراسة أسماء الأماكن (الطوبونيميا)، التي عكست الواقع التاريخي السالف الذكر. وقد تم الوقوف على أعلام أمازيغية محرفة وفق النطق العربي، وكذلك على أعلام عربية، مما يفصح عن واقع بشري ولغوي جديد عرفه المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط.